حلم الدولة اليهودية
والوطن القومي اليهودي
لمؤرخ كبير

مضى اليوم أكثر من شهرين مذ بدأت فلسطين ثورتها القومية المضطرمة ؛ وقد حسب الاستعمار يوم نشوبها أنه أمام حركة تذمر عادية يسهل قمعها بالوسائل المعتادة فاذا به أمام ثورة قومية عامة ، وعزم راسخ على النضال ، ومعركة حياة أو موت من شعب يؤثر السقوط فى ميدان الكفاح الشريف ، على الاعدام البطىء المنظم

ولقد بسطت (الرسالة) قضية فلسطين فى مقال سابق ، بين فيه كاتبه مبلغ ما ترزح تحته هذه الأمة الصغيرة الباسلة من صنوف الاستعباد المرهق ، السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، سواء من جانب السياسة البريطانية التى قضت باختيار فلسطين منزلاً للوطن القومى اليهودى أو من جانب الصهيونية التى تعمل لتوطيد دعائم هذا الوطن اليهودى بكل ما وسعت من وسائل الضغط المالى والثقافى متمتعة فى جهودها برعاية السياسة البريطانية ومؤازرتها

وإذا كنا لانستطيع الآن أن نتنبأ بما تفيده السياسة البريطانية من هذا الدرس ، أو بما تزمع أن تتخذه من الخطط الجديدة فى المستقبل نحو فلسطين ، فانا نستطيع من جهة أخرى أن نقول إن هذه الفورة العنيفة التى قامت بها فلسطين سيكون لها أثرها العميق فى صدع أركان الوطن القومى اليهودى ، وفى التدليل على ما فى صياغته وتكوينه من أوجه الخيال والعوامل المصطنعة التى تتعارض مع الحقائق التاريخية والعملية

إن إنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، هو الخطوة العملية الأولى فى برنامج الصهيونية الحديثة ؛ وهو التمهيد لانشاء الدولة اليهودية التى هى غاية الصهيونية الحقيقية ؛ واليهودية تحلم بانشاء هذا الوطن القومى وتعمل له منذ أكثر من قرن ؛ ولكن برنامج اليهودية النهائى لانشاء الوطن القومى لم يوضع إلا فى أواخر القرن الماضى ، حيث بدأ زعماء اليهودية يجمعون المال لانشاء المستعمرات فى فلسطين ويبذلون جهودهم لدى الباب العالى . وحيث أذاع تيودور هرتسل ، رسول الصهيونية الحديثة وروحها المضطرم ، رسالته الشهيرة عن الدولة اليهودية : « Die Judenstaat » وهرتسل كاتب وصحفى يهودى نمسوى ، ظهر فى أواخر القرن الماضى فى ڤينا بكتاباته الملتهبة فى سبيل القضية اليهودية ، فالفت صيحته أفقاً صالحاً لأن معظم الدول الأوربية كانت تجيش يومئذ بعوامل الخصومة السامية ، وتلقى اليهودية الاضطهاد المنظم فى كل مكان . وفى كتاب « الدولة اليهودية » يعرض هرتسل فكرة الوطن القومى عرضا قوياً ، ويرى أن يتخذ هذا الوطن صورة دولة يهودية فى فلسطين تكون تحت سيادة الباب العالى ، وتؤدى له الجزية ، وتكون البقاع المقدسة منطقة مستقلة ذات نظام خاص ؛ فصادفت الدعوة نجاحاً عظيما بين أقطاب اليهودية فى انحاء العالم كله ، وانتظمت الحركة تحت لواء هرتسل وزعامته . وفى أغسطس سنة ١٨٩٧ ، عقد مؤتمر يهودى عام فى بازل (سويسرا) برياسة هرتسل ، ووضع فيه برنامج الصهيونية الرسمى ، وعرفت غاياتها ووسائلها على النحو الآتى :

« تسعى الصهيونية لتحقيق للشعب اليهودى إنشاء وطن قومى فى فلسطين يتمتع بالضمانات التى يقررها القانون العام ، ويرى المؤتمر أن يتذرع بالوسائل الآتية لتحقيق هذه الغاية :

(١) ان يشجع استعمار فلسطين بواسطة الزراع والعمال والصناع

(٢) ان ينظم العالم اليهودى بأسره وان يحشد فى الجماعات المحلية أو العامة طبقا لقوانين البلاد المختلفة

(٣) أن تقوى لدى اليهود عواطف الكرامة القومية والاعتزاز بالجنس

(٤) ان تبذل المساعى اللازمة للحصول على التصريحات الرسمية الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية

هذا هو هيكل الصهيونية وبرنامجها العملى ؛ وقد تطورت ظروف العالم السياسية منذ عصر هرتسل ومؤتمر بازل ، واستطاعت الصهيونية بعد جهود ومحاولات عديدة أن تلقى فرصتها فى الحرب الكبرى ، وان تظفر بتحقيق الشطر الأول من برنامجها بانشاء الوطن القومى فى فلسطين ، ولكن لا تحت سيادة الباب العالى ، وانما تحت السيادة البريطانية ، وذلك بمقتضى عهد بلفور الذى قطعته الحكومة البريطانية على نفسها فى نوفمبر سنة ١٩١٧

وقد مضى على قيام الوطن القومى اليهودى فى فلسطين زهاء تسعة عشر عاماً ، وأصبح فى ظل الانتداب البريطانى ، وطبقاً

لنصوص الانتداب ذاته ، من الوجهة الدولية ، نظاماً شرعياً معترفاً به من جميع الدول الكبرى ؛ وفى هذه الفترة بذلت اليهودية جهوداً جبارة لاقامة هذا الصرح القومى الذى تحلم به منذ الآماد ، فتدفقت الهجرة اليهودية إلى فلسطين حتى أصبح عدد اليهود فيها زهاء نصف مليون ، وأقيمت المستعمرات والمشاريع اليهودية الضخمة فى جميع انحاء البلاد ، وانشئت مدينة تل أبيب لتكون عاصمة الوطن الجديد ، وأقيمة جامعة عبرية لتعمل لأحياء التراث اليهودى الروحى والفكرى ؛ وعلى الجملة فقد استطاعت اليهودية أن تحقق فى فلسطين كثيراً من المظاهر المادية والاقتصادية والاجتماعية للوطن القومى اليهودى

ولكن هذه المظاهر على ضخامتها وقوتها تبدو اليوم ضئيلة واهنة أمام ثورة الشعب الذى يقام هذا الوطن فى أرضه ، وعلى أنقاض حقوقه وموارده ؛ فاليوم يهاجم الوطن اليهودى ، ويطعن من كل صوب ، وتقوض مستعمراته ومنشآته ، وتعطل جميع مرافقه ومصالحه ، وتشل جميع حركاته ومعاملاته ، ويكاد يغدو فى حالة حصار مطبق ؛ كل ذلك تحت بصر القوى الاستعمارية التى هرعت إلى فلسطين لحمايته . وقد شعرت الصهيونية من قبل غير مرة بخطر الثورات القومية الفلسطينية على صرحها ، ولكنها لم تكن تتصور أن الخطر قد يبلغ هذا المدى من الروعة ، أو أن هذه الأمة العربية الصغيرة يمكن أن تضطلع بمثل هذا الكفاح الشاق الجلد ؛ وإذا لم يكن ثمة ريب فى أن القوى الاستعمارية الغاشمة ستتغلب فى النهاية على الكفاح القومى الباسل ، فانه لا ريب أيضاً فى أن الوطن القومى اليهودى سيخرج من المعركة مثخناً بالجراح ، وقد وهنت قواه المادية والمعنوية ، وزادت شكوك الصهيونية وهواجسها نحو المستقبل الغامض

والواقع أن فكرة الوطن القومى اليهودى لم تكن بنت القرن التاسع عشر فقط ، ولكنها ترجع إلى أقدم العصور ؛ فمنذ حطمت مملكة أورشليم اليهودية منذ نحو ألفى عام ، وشتت اليهود فى أنحاء الأرض ، تحلم اليهودية بالعود إلى أرض إسرائيل ؛ ومع أن الجماعات اليهودية قد استقرت فى الأراضى التى استوطنتها مدى القرون ، غير أنها لم تندمج قط فى الشعوب التى عاشت بين ظهرانيها ، ولبثت تكون دائماً مجتمعات مستقلة . وترجع اليهودية تلك الظاهرة إلى نظام الاضطهاد والعزلة التى كانت تفرض على اليهود ، وحرمانهم من الحقوق السياسية والمدنية طوال القرون ، حتى أنهم كانوا يرغمون على السكن والاحتشاد فى أماكن خاصة تسمى (الجيتو) . ولكن الحقيقة أن اليهودية هى التى اختارت لنفسها هذه العزلة ، وهذا الاستقلال الخالد عند الشعوب التى استقرت فيها . ذلك أن اليهودية كانت وما زالت تعتبر دائماً أن الدين هو جامعة الجنس بين اليهود ، وأن اليهودية هى ملاذ الشعب اليهودى أينما حل ، وبعبارة أخرى إن الدين والجنسية بالنسبة لليهود هما وحدة لا تتجزأ . وهذا هو الخطأ الخالد الذى وقعت فيه اليهودية ، والذى أثار عليها فى كل العصور ريب الشعوب وحقدها ، والذى هو فى الواقع أكبر عامل فى تحريك الخصومة السامية . وهذا هو الأساس الخاطئ الذى تبنى عليه فكرة الوطن القومى الذى يجتمع فيه اليهود من جميع الجنسيات واللغات

وقد فطن إلى هذا الخطأ الذى هو عنوان التعصب الخالد بعض أقطاب اليهودية ، وحاولوا أن يدعوا إلى فصل الدين عن الجنسية ، وإلى تشبه اليهود بسائر الشعوب فى اعتبار الدين مسألة روحية محضة لا علاقة لها بالجنسية ؛ دعا إلى ذلك الفيلسوف الألمانى اليهودى موسى مندلزون فى القرن الثامن عشر ، ورأى أن تتخذ القومية اليهودية صبغة محلية ، فينعدو اليهود من أبناء البلد الذى استوطنوه مع احتفاظهم بتراثهم الروحى ؛ وآزر مندلزون فى هذه الدعوة بعض أكابر المفكرين الألمان من غير اليهود مثل الكاتب الشهير لسنج وغيره ؛ ولكن هذه القومية المعتدلة التى أملى بها جو التسامح الذى نعمت به اليهودية يومئذ لم تلق كبير تأييد ، ولم يطل أمدها ، واستمرت الفكرة الدينية القديمة على قوتها وحدتها

والوطن القومى اليهودى يقوم كما قدمنا على نفس هذا الأساس ، أى على جامعة الدين ؛ وهذه أكبر نقط الضعف المعنوى فى بنائه ، فالقوميات والشعوب الحديثة لا تقام باسم الدين ؛ ولم يبق الدين فى بلد من بلاد العالم المتمدين أساساً للدولة ؛ ثم إن هذا الضعف المعنوى فى الوطن اليهودى يتخذ مظاهره المادية ، ففى فلسطين يجتمع الآن يهود من جميع الجنسيات والثقافات واللغات والنزعات السياسية ، ومن المحقق أن العمل الاجماعى المتناسق بين هذه العقليات والبيئات المتباينة صعب التحقيق . والواقع أن معظم اليهود المهاجرين يفدون على فلسطين لبواعث اقتصادية قبل كل شئ ، ولكى يحققوا لأنفسهم بعض وسائل العيش التى يفتقدونها فى بلادهم الأصيلة ؛ ومنهم من يفد قراراً من الاضطهاد الذى يفرض